خليـــل مطران

شاعر الحرية

١٨٧٢ — ١٩٤٩

شاعر الحرية والعروبة . حمل لواء التجديد فى الشعر . نيفا ونصف قرن من الزمان . وبلغ الذروة فى عالم الشعر والفن والبلاغة والخيال .

ولد سنة ١٨٧٢ فى بعلبك إحدى المدن الشهيرة بلبنان . ونشأ نزاعا إلى الحرية سمح النفس . كريم الخلق . صفى السريرة . محباً للخير . وديعا فى شمم وإباء . معتزا بكرامته . عيوفا عن الصغائر .

ضاق صدرا منذ صباه بجو يضغط على حرية الرأى والفكر . فارتحل إلى باريس يتم فيها دراسته وعلومه . وهناك ارتوى من مناهل الآداب الغربية . وإذ كانت شاعريته وليدة فطرته وسليقته . فقد اتجهت نفسه بتأثير الأدب الفرنسى إلى التجديد فى شعره . فجمع بين البلاغة العربية والأساليب والمعانى الأوروبية .

ثم هاجر إلى مصر ، واتخذها موطنه الثانى . بل موطنه المختار . أخلص لها ، وغرّد فى أكنافها ، وتعشق نيلها وأرضها وسماءها ، وهو ثالث الثلاثة الذين عاشوا معا وانتهت إليهم زعامة الشعر فى العصر الحديث : شوقى وحافظ ومطران .

ألهمه حب الحرية نظم القصائد الرائعة فى تمجيدها والذود عنها . والجهاد فى سبيلها ، فكان من أعلامها الخالدين .

كان إنسانا فى شخصه وفى أخلاقه وفى شعره وأدبه .

كان فى شعره ينشد الكمال ، ويحلّق فى أجواء الحرية والوطنية .

كان يستلهم شعره من مثل العليا ، وفى ذلك يقول عن نفسه فى الاحتفال بيوبيله الذهبى سنة ١٩٤٨ .

كانَ فى الشعر لى مرامٌ خطيرٌ ... فعدا طَوْقَ المَرامُ الخطيرُ
هائم فى الوجود أسأله الوحـ ... ـى كما يسأل الغنىَّ الفقيرُ
أكبرونى ولست أكبر نفسى ... أنا فى الفن مستفيد صغير
لا يَضِقْ صدرُ شاعر بأخيه ... يكره الفضلُ أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملتَ فيها ... ليس تُحْصىَ شموسُها والبدورُ
كل جرم يغيب ويصبح نجما ... فله حيزٌ وفيه بدور
والنجوم التى تلوح وتخفىَ ... رَبَواتٌ وما يضيق الأثير

و بهذه الروح العالية ، والنفس الصافية ، والود الخالص ، والإيثار والأريحية ، عاش محبوبا من معاصريه : يحبهم و يحبونه ، و ينشد لهم الخير والكمال .

وقد أرخ فى شعره الوطنى العذب مراحل النهضة المصرية والشرقية ، وسجل حوادثها ووقائعها ، وترجم لرجالها وأشخاصها ، وغذى بقصائده الروح الوطنية جيلا بعد جيل .

يمتاز شعره بسعة الخيال وجمال التصوير و بلاغة التعبير ، هذا إلى اقتباسه من آداب اللغة الفرنسية التى درسها وتمكن منها تمكنه من آداب اللغة العربية ، فجمع بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية ، وهو زعيم مدرسة التجديد فى الشعر العربى ، وسار على نهجه تلاميذه ومريدوه .

وقد عبر أبلغ تعبير وأرقه عن منهج التجديد فى شعره ، بقوله فى مقدمة الطبعة الثانية لديوانه سنة ١٩٤٨ قال :

« هذا شعرى ، وفيه كل شعورى ، هو شعر الحياة والحقيقة والخيال ، نظمته فى مختلف الآونة التى تخليت فيها عن العمل لرزقى ، نظمته مصبحا وممسيا ، منفردا ومتحدثا مع عشرائى ، وقيدت فيه زفراتى وأحلامى ، وسجلت بقوافيه أحداث زمانى و بيئتى فى دقة واستيفاء .

« أتابع السابقين فى الاحتفاظ بأصول اللغة ، وعدم التفريط فيها ، واستيحاء الفطرة

الصحيحة ، وأتوسع فى مذاهب البيان مجاراة لما اقتضاه العصر . كما فعل العرب من قبلى ، أما الأمنية الكبرى التى كانت تجيش بى ، فهى أن أدخل كل جديد فى شعرنا العربى بحيث لا ينكره ، وأن أستطيع إقناع الجامدين بأن لغتنا أم اللغات إذا حفظت وخدمت حق خدمتها ، ففيها ضروب الكفاية لتجارى كل لغة قديمة وحديثة فى التعبير عن الدقائق والجلائل من أغراض الفنون . وإنى لأرجو أن يرى المطلعون على هذا الجزء الثانى وما يليه من أجزاء (ديوان الخليل) مصداقا لدعواى » .

وقال عنه صنوه وصديقه حافظ يشيد بنزعته فى التجديد :

« هو فى طليعة أولئك الذين خرجوا من أفق التقليد وصدعوا قيود التقييد ، وأوسعوا صدر الشعر العربى للخيال الأعجمى ، وأفسحوا فيه للقصص وتصوير الحوادث ، وطوّفوا بسرد وقائع التاريخ ، ففتح بذلك فتحا جديداً شنَّ فيه الغارة على أهل الحفاظ والتمسيك » .

وكان من أركان المسرح العربى بما كتب لهذا المسرح وعرَّب ، فقد ترجم ليالى الفريد دى موسيه ، ورواية هرنانى لڤكتور هيجو ، كما ترجم لكورنيل مسرحيات (السيد) وسينا و بوليكت ، وترجم روايات شكسبير : هاملت ، ومكبث ، وعطيل ، وتاجر البندقية .

النهضة العربية

قال سنة ١٩٠٨ يحيى نهضة الشعوب العربية :

داعٍ إلى العهد الجديد دعاكِ ... فاستأنفى فى الخافقيْنِ عُلاكِ

يا أمَّة العرب التى هى أُمُّنا ... أىُّ الفَخار نَمَيْتِه ونماكِ ؟

يمْضى الزمان وتنقضى أحداثه ... وهواكِ منَّا فى القلوب هواكِ

إنَّا نقاضى الدهر فى أحسابنا ... بالرأى لا بالصَّارم الفتَّاكِ

ومِلاكُ شيمتنا الوفاء فإنَّه ... لسعادة الأقوام خير مِلاكِ

آمالنا آلامنا أرْواحنا ... أشْباحنا يوْم الفدَاء فداكِ

بالعلم ننْشُرُ ما انطوى من مجدنا ... وبه نزكّى فى الورَى ذكراكِ

مطران ومصطفى كامل

كان بينه و بين الزعيم مصطفى كامل صداقة وود داما طول العمر ، كان مؤيدا لدعوته نصيراً لرسالته ، دافع عنها فى حياة مصطفى ، وظل وفيا لها بعد وفاته ، و يبدو مبلغ إعجابه به وتقديره لعبقريته فى قصيدته التى أنشدها سنة ١٩٠٨ فى حفلة الأربعين لوفاته ، وقد نشرها فى ديوانه وصدرها فى طبعته الأولى بهذه الكلمة التى تعد فى ذاتها قصيدة من النثر المنظوم ، قال : « مصاب الشرق فى رجله المفرد ، و بطله الأوحد ، مصطفى باشا كامل ، أيتها الروح العزيزة ! إن فى هذا الديوان الذى أختتمه برثائك ، نفحات من نفحاتك ، ودعوات من دعائك ، فإلى هيكلك المدفون بالتكريم تحية الأخ المخلص للأخ الحميم ، ووداع المجاهد المتطوّع للقائد العظيم » .

وجعل عنوان القصيدة (حق الوطن وحق الإخاء) قال :

أعْلَى مكانتكَ الإلهُ وشَرَّفا ... فانعم بطيب جواره يا (مصطفى)
اليومَ فُزتَ بأجر ما أسلفتهُ ... خيراً ، وكلٌّ واجدٌ ما أسلفا
وجُزيتَ مِن فانى الوجود بخالد ... ومن الأسى الماضى بمقتبل الصَّفا

* * *

أعظِمْ بيومك فى الزمان ومن له ... بك واصفاً ذاك الجلالَ فيوصَفا
حيث الوفود من الملائك أقبلوا ... حافّين حولك فى السرير وعُكَّفا
وتحمَّلوك على الأشعَّة وارتقوا ... سِرباً يجوز بك الدرارى موجفا
فوردتَ وِرْدك فى الخلود منعَّما ... والأرضُ مائدةٌ عليك تأسّفا
لم تُلْف قبلك أمَّةً فى مشهد ... يذرو الرجالُ به المدامعَ ذُرَّفا
يمشون من حول الجنازة ضائقاً ... بهم الرحيبُ من المسالك مصرفا
متثاقلين من الوقار و إنما ... ساروا بطَيْفٍ ناحلٍ أو أنحفا
بحرٌ من الأحياء نعشُك فوقه ... فُلْكٌ يظلّله اللواء مرفرفا

يبكون فى آثاره العَلَمَ الذى آثارُهُ من رفعـــةٍ لا تُقْتَفَى

* * *

سَعَت الخوادِرُ حاسراتٍ والأسى مُلْقٍ على الأبصار سِتْرا أغدقا
ولئن ســـفرنَ ولم يخَلْنَ فإنه خطبٌ ألانَ بروْعه صُمَّ الصفا
فزِع الشبابُ إلى الشيوخ بثأرهم من دمعهم إن خانهم متكفكفا
ومن الغضاضة أن دعا داعى العلا بعـــد الفقيد فتًى بهم فتوقفا
جزع النصارى واليهود لمســلم هو خير من والى وأوفى من وفى
بكَوا المرجَّى فى خلافٍ عارضٍ ليزيل ذاك العارضَ المتكشِّفا
واشـــتد رُزْءُ المسلمين وحزنهم لما مضيتَ ولست فيهم مُخْلِفا

* * *

مَن بَعْدَ كاتبهم وبَعدَ خطيبهم يُعلى لهم صوتاً وينشرُ مصحفا ؟
من يبرئُ الإسلامَ من تُهَم العِدى ويردّ نقـــد الناقدين مزيَّفا ؟
يُبدى لأعين جاهِليـــه فضلَهُ ويزيلُ ما يلدُ التناكرُ من جفا
ويثير من غضب الغضاب لمجدِه همماً تعيـد له المقام الأشرفا
لـكنَّ من أقلام جندِك حـوله سُمراً تهزُّ لـكل خطبٍ معطفا
ولعل حُـــرًّا لا يدين به انبرى ليذودَ عنـــه خصمَهُ المتعسفا
قِفْ أيها الناعى عليـه جمودَهُ فلقد تجاوزت الهـــدى متفلسفا
إن يَعترِ الشمس الـكسُوفُ هنيهةً أيـكون منقصةً لها أن تُـكسفا ؟
وهل الـكسوف سوى تَعرض حائل يثنى أشعتها إلى أن يُكْشفَا
لم تنزل الأديان إلا هـــاديا للعالمين ورادعاً ومثقِّفـــا
بشعارِ حىَّ على الفلاح وما بها أن تصر الأوامُ عنـــه فأخلفا
وبـكل أمر موجبٍ إصلاحهم أن خالفوه فما استحال ولا انتفى

قد كان للإسلام عهدٌ باهرٌ ... نبنا به هـــذا الرّقيّ مُسَلّفا
ملأ البلاد إنارةً وحضـــارةً ... ومُنَى السماحـــةِ عودُهُ مستأنفا
فالخيرُ كلُّ الخير فيـه مقبلاً ... والشرُّ كل الشر أن يتخلفـا
يدعو البقاء إلى التكافؤ بالقوى ... بين العناصر أو يهينَ ويضعفا
والخلق جسمٌ إن ألمَّ ببعضـه ... سَقَمٌ ولم يُتلافَ عَمَّ وأتلفـا
بشرى البريةِ بعد مزمن دائها ... بسلامة الإســـلام وهى لها شِفَا
إن أغضبت تلك السلامة جائراً ... أرضت خبيراً بالحيـــاة ومنصفا
يا من نهضتَ بنصرِهِ وأبَنْتَه ... حقَّ الإبانة هـل تبالى مرجِفا ؟
ما زلتَ فى مصر تقيم منـــارَه ... حتى أنارَ الكونَ منها مُشْرِفا

* * *

مصرُ العزيزةُ قد ذكرتُ لك اسمَها ... وأرى ترابَكَ من حنين قد هَفَا
وكأننى بالقـــــبر أصبح منبراً ... وكأننى بك مُوشِكٌ أن تهتفا
مصرُ التى لم تحظ من نجبائهـــا ... بأعزَّ منك ولم تعزَّ بأحصفـــا
مصرُ التى لم تبغ إلا نفعَهـــا ... فى الحالتين ملايناً ومعنِّفـــا
مصرُ التى غسلت يداك جِراحَها ... بصبيب دمعك جارياً مستنزفا
مصرُ التى كافحتَ لدَّ عُداتِها ... متصـــــدراً لرماتها مستهدفا
مصرُ التى سُقْتَ الجيوش مناقبا ... ومُنًى لتكفيها المُغير المجحفا
مصرُ التى أحببتها الحبَّ الذى ... بلغ الفداء نزاهـــةً وتعففا

حتى مضيتَ كما ابتغيتَ مؤلّفا ... من شملها ما لم يكن ليؤلَّفا

أمنيَّـــةٌ أعيتْ خلالك دونها ... لو لم يضافرْها رَدَاك فيُسعِفـــا
وهى التى لو تُسِّمت لَنَمَا بها ... شعبٌ يعزّ بنفســـه مستنصفا

* * *

من كان أجرأ منك يوم كريهة ... بالحق لا شكساً ولا متصلفا
من كان أقدرَ منك تصريفاً كما ... يبغي الحكيم مدبّراً ومصرّفا
من كان أطهرَ منك خُلْقاً جامعاً ... فيه مهيبَ الطبع والمستظرَفا
من كان أزهد منك إلا فى الذى ... يُجْدِى البلادَ فتبتغيه مُلْحفا
من كان أسمعَ منك منّاعاً لما ... تهوى ومعطاء لغيرك مُسرفا
من كان أصدق منكَ لا متنصلاً ... مما تقولُ ولا تعاهدُ مُخْلِفا

* * *

لهفى على فخر الصبى هادى النهى ... عالى اللواء حمى المروءة والوفا
يا من نعى تلك الفضائلَ والعلى ... أغدت معالمهنّ قاعاً صفصفا
لا لا وحقك ياشهيدَ وفائه ... ورجائه كذبَ النعىُّ وأرجفا
ما أنتَ بالرجل الذى يمسى وقد ... ملىء الوجودُ به ويصبح قد عَفَا
إنى أراك ولا تزال كعهدنا ... بك فى جهادك أو أشد وأشعفا
ثابرْ على تلك العزائم ذائداً ... عن مصر تضربُ فى البلاد مطوّفا
أصدر صحائفك التى تحيى بها ... نِضْوَ الطريق وتدفع المتخلفا
تجرى بها الأنهارُ وهى دوافقٌ ... هِمماً وتوشك أن تطمَّ فتجرفا
وتكاد أسطُرها تهبُّ نواطقاً ... ويكاد يعزِفُ كلُّ حرف مَعْزفا
فاذا حنوتَ على الحمى متحبباً ... فهو النسيم وقد ذكا وتلطفا
وكأنما الألفاظ مما خَفَّفتْ ... نَقشَ المدادُ رسومَها وتحففا
تُستام من أتوابها أرواحُها ... وتعاف تحليةً لئلا تكشفا
قمْ للخطابة فى المجامع وامتلك ... تلك النفوس مروّعا ومشنفا
أعد القديم من الممالك والقرى ... ذكرى وعرِّفنا الحياة لنعرفا
شدِّدْ عزائمنا وفاتلْ ضعفَنا ... حتى نَبيتَ ولا نرى متخوِّفا
ما هذه الآياتُ يَرمى لفظُها ... شرراً وتهوِى الشهبُ فيها أحرفا

ما ذلك الترصيعُ ليس مرصَّعاً ... ما ذلك التفويفُ ليس مفوَّفا
وحيٌ بأهجيـــةٍ إذ ما أطلقتْ ... هبطت رواسبَ عنه والمغزى طفا
تُحيي حرارتُها ويَهْدِي نورُها ... متماهِلَ الإشراق أو متخطِّفا
تالله ما أنت الخطيبُ وإنما ... وقفَ القضاء من المنصَّة موقفا
عَنْ نطقِه تقعُ الصروف مواعظاً ... وكأمره أمرُ الزمان مصرَّفا

* * *

يا حبـذا لو كلُّ ذلك لم يَزَلْ ... لكنه حُـلْمٌ مضى مستطرَفا
والآن نحن لدى ثراك نحجّه ... متلهبين تشـــــوقا وتشوفا
نُثني وهـــــل يوفَى ثناؤك حقَّه ... وبأى ألفاظ المحامد يُكتفى
ماذا يُعيضك من شبابك نظْمنا ... فيكَ الرثاءَ منسَّقاً ومصفَّفا
ويُعيض منك وكنت جوهرة الحمى ... صوغُ الكلام مرصَّعاً ومزخرفا

* * *

يا أخلص الخلصاء أبكى بُعدَه ... كبكاء مصر تحرّقا وتلهفا
هـذا مثالُك لاح يرعانا وقد ... كشف الجوى عنه الحجاب فأشرفا
جاد الهلال برسمـــــه تاجاً له ... وكسته ناسجةُ الطهارة مطرَفا
يا من رماه غداته بتطرف ... حققت آمال الهُدى متطـرفا
كهواك للأوطان فليكن الهوى ... لا مفترى فيـــــه ولا متكلَّفا

يجرى على قَدر المطالب ناميـا ... ويَجلُّ فى مجراهُ عن أن يَصْدِفا
أنشأتَ من مصرَ الشتاتِ بفضله ... مصرَ الفتـاةَ حِمى يُعز ومألفـا
أحدثت فيها أمـــةَ أندى يداً ... للصالحـات وبالعظائم أكلفا
عرَّفتَ أهليها حقيقـةَ قدرِهم ... وكفاهمُ من قدرهم أن يُعرَفا
نفحاتُ روحك خامرت أرواحَهم ... فهم مرامُك ساءَ دهرٌ أو صفـا

حِصْنٌ أشمُّ تساندت أجزاؤه ... عِلْماً وأمَّنه النُّهى أن يُنْسَفا
فارقُدْ رُقادَكَ إن ربّك قد محا ... لك ذنْبَ مصر كما رجوتَ وقدْ عفا

وله فى سنة ١٩٣٣ قصيدة عصماء ألقاها لمناسبة مرور عام على وفاة حافظ إبراهيم ، ضمنها وصفا رائعا للنهضة القومية التى كونت حافظا ، وجعلته الشاعر المطبوع المترجم عن آمالها وآلامها ، وكيف أن هذه النهضة هى غرس مصطفى كامل ، وكيف تعهدها بجهاده إلى أن مات . وبموته كانت الآية التى تم بها استقرارها ، قال فيها :

طرأتْ حالةٌ تيقّظ فيهـا ... لدعاة الهدى ضمير السواد[1]
فإذا (حافظ) وقد بثّ ما فى ... نفسه من تجهّم واربداد
وبدا للمنى الجلائلِ فيها ... أفقٌ واسع المدى لارتياد
ما تجلّى نبوغه كتجلّيه ... وقد هبّ (مصطفى) للجهاد
يوم نادى الفتى العظيم فلبّى ... من نَبا[2] قبلَه بصوت المنادى
ووَرَى[3] ذلك الشعور الذى كا ... ن كمينًا كالنار تحت الرماد
فتأتّى بعد القنوط الدّجوجـى[4] رجاء للشاعر المجواد
مس منه السوادَ فانبجست نا ... ر ونور من طىّ ذاك السواد
أكبر الدهرُ وثبـةً وثبتها ... مصرُ مفتكّة من الأصفـاد
وثُغاء[5] غدا هزيمًا[6] فألقى ... رُعْبه فى مرابض الآسـاد
ما الذى أخرج الشجاعة من حيـث طوتها قرونُ الاستبداد
وجلا غُرة الصلاح فلاحت ... تزدهى من غياهب الإفساد
فإذا أمةٌ أبيـةُ ضيم ... ما لها غـير حقها من عَتاد
نهضت فجأة تنافح فى آ ... نٍ عدوّين أسرفا فى اللداد

---

(١) يريد الجمهور .
(٢) نبا : تجافى وتباعد .
(٣) ورى الزند : خرجت ناره .
(٤) المظلم .
(٥) الثغاء : صوت الشاة والمعز
(٦) الهزيم ، صوت الرعد .

أجنبياً ألقى المراسيَ حتى تقلع الراسياتُ فى الأطواد
وهواناً كأنما طبع الشعبَ عليه تقادمُ الإخلاد
حلبة يعذرُ المقصّر فيها والخواتيم رَهن تلك المبادى
ليس تغييرُ ما بقوم يسيراً كيف ما عُودوه من آماد ؟
غير أن الإيمان كان حليفاً لقلوب الطليعة الأنجاد
فاستعانوا به على ما ابتغوه غير باغين من بعيد المراد

إلى أن قال :

بعد وثْبٍ فى إثر وثْبٍ عنيف وارتدادٍ فى الشوط غِبّ ارتداد
ساور الأمة التردُّ والتا ث[1] عليها فى السير وجهُ الرشاد
لا تسل يومذاك عن جلد القا دة فى مُلتقى الخطوب الشداد
كلما ازدادت الصعاب أبوْا إ لّا كفاحا وعزمُهم فى ازدياد
يبذلون القوى وفوق القوى غير مبالين أنها لنفاد
و (الزعيمُ الأبرُّ) أطيبهم نفساً عن النفس فى صراع العوادى
هل ينجى شعباً من اليأس إلا حَدَث من خوارق المعتاد
مصطفى مصطفى بحسبك إن يذ كرْ فداءً أن كنتَ أول فاد
مصطفى مصطفى ليهنئك أن أحييت قوماً بذاك الاستشهاد
دب فيهم روح جديد له ما بعدَه فى القلوب والأخلاد[2]
تنقضى الحادثات بعدك والرُّو ح مقيمٌ فيهم على الآباد
كادَ يومٌ شيعتَ فيه يريهم لمحةً من جلال يوم المعاد
صدروا عنه بالتعارف فيما بينهم وهو قوة الأعداد
واستشفوا لبأسهم فيه سرا كم تحامى أن يدركوه الأعادى

---

(١) التاث عليه الأمر : اختلط والتبس .
(٢) الأخلاد : العقول

هـــذه مصر الفتية هبّتْ فى صفوفٍ فتيّـةٍ للذياد
رجل مات مخلفاً منه جيلا رابط الجأش غير سهل المقاد
عهد نور من الحفاظ ونار بعد طول الخمود والإخماد
تخذت عبقرية الشعر فيـه ســـلماً للعروج والإصعاد
أبلغت (حافظاً) من الحظ أوجا زاد منـــه العَلياء كل مراد

إزاحة الستار عن تمثال مصطفى كامل

وله فى سنة ١٩٤٠ قصيدة عن مصطفى كامل نظمها لمناسبة إزاحة الستار عن تمثاله بعد أن ظل حبيسا فى « مدرسة مصطفى كامل » من سنة ١٩١٤ . قال :

أمنوا بموتك صـــوله الرئبال ماذا خشوا من فتنة التمثال ؟
حبسوه عن مقل إليه مشوقة فاضت أسى ودموعهن غوال
حتى أرادت مصر غير مرادهم وجلاء من أوفى بنيها جال
أتُهيِّئُ استقلالَ قومك جاهداً وتُذادَ عنهم يوم الاستقلال ؟
أنصفت بعض الشيء بل هى توبة فى بدئها ولكل بدء تال
فلقد تؤوب وجد غيرك عاثر فيما أدعى صلفا وجدك عال
يا حسن عودك والكنانة حرة تلقاك بالإكرام والإجلال
أيروعك الحشد الذى بك يحتفى من غُرٍّ فتيانٍ وصـــيد رجال
ماذا بثثت من الحياة جديدة فى هـــذه الآساد والأشبال
بعث لموطنك العزيز رجوتَه وسواك يحســـبه رجاء محال
خاطرت فيه بالشباب وبذله سرف لمطلوب بعيـــد نوال

* * *

أى مصطفى ! ولت سنون وما اشتفى شوقى إليك فهن جد طوال
عجب بقائى بعد أكرم رفقة زالوا ولم يشأ القضـــاء زوالى

هم صفوة الدنيا وكانوا صفوها ... فأحق حيّ بالأسى أمثالى

حزن بعيد الغور فى قلبى فإن ... وجب الرثاء فإنما يُرثى لى

ماذا أقول وهـــذه أسماؤهم ... وشخوصهم ملأ الزمان حيالى

تعتادنى فى مسمعى أو ناظرى ... وإلى يمينى تارة وشمالى

إنى لأحفظ عهدهم وأصـــونه ... فى كل حادثة ولســت بآل

وكأن حسى حسهم فرحا بمـا ... يقضى الحمى من حقهم ويوالى

كم فى مغارسهم جنى ألفيته ... متجددا بتعاقب الأحوال

ســـلوى أتاحتها مآثرهم وقد ... يغدو الفراق بهـــا شبيه وصال

وكذاك مجد العبقرية والفدى ... لا يتقضى بتحول الأحوال

***

أى مصطفى ما كنت إلاّ كاملا ... لو كان يتصف امرؤ بكمال

ماذا لقيت من الصبى ونعيمه ... غير المكاره فيـه والأهوال

إنى شهدت شهادة العينين ما ... عانيت فى الغدوات والآصال

متطوعا تسخو بما يفنى القوى ... من جهد أيام وسهد ليـــالى

إذ قمت بالأمر الجسام ولم يكن ... فيمن أهبت بهم مجيب سؤال

حال التورع دون إغراء المنى ... زمنا نما من مســـعد وموال

والقوم فى ظمأ ووعدك مطمع ... لـكن يرون له رفيف الآل

تسعى ويعترض السبيل قنوطهم ... فى كل حِلّ منك أو ترحال

فتظل تضرب فى جوانبه وما ... تلقى إلى نظر الحبوط ببال

لك دون ما تبغى مضاء مصمم ... لا ينثنى وبلاء غير مبـــال

حتى إذا وضح اليقين وصدقت ... دعواك آية ربك المتعـــالى

فثويت أظهر ما تكون على عدى مصر بعقبى دائك المغتال

* * *

هزت منيتك البلاد ولم تكن بأشد منها هزة الزلزال
فالقوم من جزع عليك كأنهم آل وقد رزئوا عزيز الآل
كشف الأسى لهم الحجاب فأيقنوا أن الحياة مطالب ومعال
وتبينوا أن الخنوع مهانة لا يستطال بها مدى الآجال
لله حسن بلائهم لما أبوا متضافرين دواء تلك الحال
وتوثبوا بعزيمة مصدوقة برئت من الأحقاد والأوجال
يردون حوضا والمنايا دونه مستبسلين ضروب الاستبسال
حتى أتيح الفتح يجلو حسنه فى يومه إحسان يوم خال
فتح بدا اسمك وهو فى عنوانه متخضبا بدم الشباب الغالى
إيها شديد الحب للبلد الذى لا أنت ساليه ولا هو سال
أبهج بأوبتك السنية طالعا فى أفقه كالكوكب المتلالى
للذكر آفاق سحيقات المدى ولزهرها المتألقات مجال
فإذا دنت منا فتلك عوالم وإذا نأت عنا فتلك لآلى
تطوى من الأدهار ما لا ينقضى وتجول فى الأفكار كل مجال
أنوار وجهك طالعتنا اليوم من برج حللت به لغير زيال
قد أثبتتها مصر بين عيونها فالحال متصل بالاستقبال
نعم الثواب لذى مآثر فى الفدى فرضت محبته على الأجيال

* * *

فتيان مصر وعهدها غير الذى عانته فى الأصفاد والأغلال
حيوا مديل حياتها من يأسها ومذلل الآلام للآمال

حيوا زعيم اليقظة الأولى بها وخطيب ثورتها فى الاستهلال
هذى مواكبها وتلك وفودها فى ملتقى ذى روعة وجمال
حفلت برمز نهوضها ومثاله مالا تدانى صنعة المتـــــال
لكنها مهج بثته ولم تكن إلاّ ذرائعها فضول المال
وكفاه فخرا أن ذاك المال لم يك مكس جاب أو تطول وال
رسم روح وفيه معنى أصله فيروع بين حقيقة وخيال
لان الحديد له فصاغ لعينه أثراً على الأيام ليس ببـــال
كم فى بليغ سكوته من عبرة أو فى وأكفى من فصيح مقال
هو خالد وبظل مدرد قومه فى كل نازلة وكل نضال

تحيته للمجاهدين فى المؤتمر الوطنى ببروكسل سنة ١٩١٠

ونظم فى سنة ١٩١٠ قصيدة ناجى فيها الوطنيين الأحرار الذين اغتربوا عن مصر لحضور المؤتمر الوطنى الذى عقد برآسة المرحوم محمد فريد بمدينة بروكسل فى سبتمبر سنة ١٩١٠ . قال :

أتراد فوق مناكب الأدهار شفقٌ تخلّفَ عن بديع نهار[1]
حقب دجت منها السفوح ولم يزل فوق الذرى منها بريق نضار[2]
يا مغرب الماضى أما من آية فتعود فى سَحَر من الأسحار ؟

---

(١) يشير إلى ذكرى المجد القديم وأنها باقية على الدهر ويعبر عنها بالشفق ، أى النور المتخلف عن الشمس بعد غروبها .

(٢) الحقب : السنون . ودجا : أظلم . والذرى ، جمع ذروة ، أعلى الشىء . والنضار : الذهب . أى أن عهود التأخر قد تركت ظلاماً مخيما على البلاد . ومع ذلك لا يزال فوق الذرى نور الشمس التى غربت .

هـذا صبـاحٌ مقبل من غيبه فتبيّنوه يا أولى الأبصـــار
تجد العيون على نواصى أفقـه ضوءاً تألّق من وراء ســـتار
سَحَر الرجاء بدا لكم وإزاءه شـــفق البقية من عُلاً وفخار(١)
شقـان من حَلى أغرّ تصوغه تاجاً لمصر أنامل المقدار(٢)
تاجٌ ستلبسه الفتاة مخلّفا عن أمها فى سالف الأعصار
ويكون من آياته وشعاعه آيات مجد رجالها الأخيار

* * *

نجبـــاء مصر الواترين لعزها وجلالها من ذلة وصغـــار(٣)
خوضوا غمار الضيم دون رجائكم لافوز إلّا بعـد خوض غمار
ما شاء سعْدُ الدار أن تشقَوْا له فاشقَوْا له ما شاء سعد الدار
إن شَقَّ ترحالٌ فهذى هجرةٌ لا شُقةٌ(٤) فى مثلها فبدار
سيروا تتموا فى الحياة فطالمـا كان التقاعس مؤذنا ببوار
ما اللُّجُّ وادَعَ أو تشاكسَ حارِناً إلا ذلول الراكب الكرار(٥)
ما البَرُّ أنجـد أو أغار بجائب إلا سليب خطّى ونَهْبُ قطار(٦)

* * *

ركبَ النجاة استطلعوا لبلادكم فى الغرب كل مطالع الأنوار
هُـــزوا منابرَه بعالى صوتكم حتى يرنّ صداه فى الأقطار

---

(١) أى يتجلى فجر الأمل وأمامه الذكرى الساطعة للمجد القديم .
(٢) الحلى ، وجمعه حلى : ما يصنع من مصوغ المعدنيات ، أو الحجارة الكريمة ، والمقدار هو القدر ، يريد أن مجد الماضى والمجد المأمول للمستقبل يتقابلان كشقى تاج لمصر .
(٣) يخاطب ركب المؤتمر وأعضاءه. ويصفهم بأنهم ذاهبون ليثأروا لمصر مما أصابها من ذلة وضيم .
(٤) الشقة : السفر البعيد .
(٥) لج البحر أمواجه . أى ليس البحر إن سهل أو صعب إلا كالركوبة الذلول للفارس الذى يروضها .
(٦) الجائب : المسافر .

أنتم جنود السِّلْم رُسْل جهاده ... أنتم أشعّة مصر فى الأمصار
أنتم أشعّة حزمه شفّافةً ... عن حزمها والنورُ بَثُّ النار
ترجون أن تحيوا وتحيا مصركم ... حق الحياة وما بها من عار
لا تسأمون تغربا فى مبتغى ... أسمى الهنات وأشرف الأوطار

* * *

الحكم شورى لا تفرّد صالحٌ ... فى غير حكم الواحد القهار
لا تسترقُّ عشيرةٌ وديارُها ... لعشيرة غلّابةٍ وديار
العدل إن يُقصَد فليس بكائن ... فى نُكْر معرفة وغصب جوار
الرأى تكمد شمسُه فى موطنٍ ... متناقضِ الإعلان والإسرار
الخير تفقد سُبْله فى مجمع ... متعارض الإقبال والإدبار

* * *

ماذا عليكم أن تكون شعاركم ... هذى المطالبُ وهى خير شعار
لستم بسفاكى دم ، لستم إلى ... غير الحقيقة طامحى الأنظار
لستم غلاة والأمل مرامكم ... بين الشعوب الشُّبَّق الأحرار
لستم غلاة . خال ذلك منكم ... من لم يخلكم من ذوى الأخطار[1]
ليس الذى تبغونه من مطلب ... إلا أحقّ مطالب الأحرار
من لم يخل فى مصر عبداً شاكياً ... فى فترة التفكير والإضمار
أجرِعْ بسار آمنٍ فى معهد ... وثبتْ عليه فجاءةُ التزآر[2]

* * *

إنى ليعجبنى كبيرُ مرامكم ... وهو الحقيق بغاية الإكبار

---

(١) أى لستم غلاة كما توهم ذلك من ظن أنكم لستم من ذوى الكفايات والأقدار .

(٢) أجرع ، أى ما أشد جزع . والفجاءة مصدر فجأه . والتزآر : زئير الأسد . يريد أن الإنجليز فوجئوا بالحركة الوطنية فى ذلك العهد ، كما يفاجأ السارى بزئير الأسد .

وأقول للعزى بسنّ صغاركم ... ليس العظيمُ نفوسُهم بصغار

أمهاجرى أرض الكنانة إنكم ... وجميعُ من فيها من الأنصار[1]

إمضوا دعاةً للهدى واستنصروا ... بالحق للبلد العزيز الجار

كونوا الشهود له على أعدائه ... برجوع شمسِ نهاره المتوارى

الثبات فى الكفاح

وقال لما زاد اضطهاد الحكومة للأحرار وسلطت قانون المطبوعات على الصحف :

شرّدُوا أخْيارَها بَحْراً وبَرّا ... واقْتُلوا أحْرارها حُرّا فحُرّا

إنّما الصّالحُ يَبْقَى صَالحاً ... آخِرَ الدّهْرِ ويبقى الشّر شرّا

كَسّروا الأقْلام هَلْ تَكْسيرُها ... يَمْنَعُ الأيْدِيَ أنْ تَنْقُشَ صَخْرا ؟

قَطّعوا الأيدىَ هل تقطيعُها ... يمنع الأقدام أن تركب بحرا

حَطّموا الأقدام هل تحطيمها ... يمنع الأعْيُنَ أن تنظر شَزْرا

أطْفِئُوا الأعْيُنَ هل إطْفاؤُها ... يمنع الأنْفاسَ أنْ تَصْعَدَ زَفْرا ؟

أخْمِدوا الأنْفاس ، هذا جُهْدُكم ... وبِهِ مَنْجاتُنا مِنْكُمْ ... فَشُكْرا !

وقال فى هذا المعنى حين توعدته الحكومة بالنفى من مصر على أثر نشره الأبيات السابقة :

أنا لا أخافُ ولا أُرَجّى ... فَرَسى مُؤَهَّبَةٌ وسَرْجى

فإذا نَبَا بىَ مَتْنُ بَرّ ... فالمَطِيَّةُ بَطْنُ لُجّ

لا قوْل غير الحقّ لى ... قَوْلٌ وهذا النهْجُ نَهْجى

أُلوعدُ والإبعادُ ما كانا ... لدَىّ طريق فُلْجِ[2]

---

(١) يسمى أعضاء المؤتمر المهاجرين . وسكان مصر الأنصار ، تشبيها لهم بالمهاجرين والأنصار فى صدر الإسلام .

(٢) الفلج : الظفر .

يحيي رأس السنة الهجرية

ونظم سنة ١٩١١ قصيدة عصماء حيا بها العام الهجرى (١٣٢٩) ، خاطب فيها شباب مصر ودعاهم إلى الاعتبار بما فى هجرة الرسول الكريم من المعانى الجليلة ، والأغراض السامية . وأهاب بهم أن يضاعفوا جهودهم لبعث الحياة فى مصر والشرق . قال :

هَلَّ الهلال فَحَيُّوا طالعَ العيد ... حَيُّوا البشير بتحقيق المواعيد
يا أيها الرَّمز تَسْتَجْلِى العقول به ... لحكمة الله معنًى غير مَحْدود
كأنَّ حُسنك هذا وهو رائعنا ... حُسْنٌ لبكرٍ من الأقمار مولود
لله فى الخلقِ آياتٌ وأعجبُها ... تجديدُ رَوْعتها فى كل تجديد

* * *

فِتيانَ مصر وما أدعو بدعوتكُمْ ... سوى مجيبين أحراراً مناجيد[1]
سوى الأهلَّة من علْمٍ ومن أدبٍ ... مؤَمِّلين لفضلٍ غير مجحود
المُسْتَسِرُّ شعار المقتدين به ... العاملين بمغزًى منه مقْصود[2]
ما زال من مبدإ الدُّنيا يُنبِّئنا ... أنَّ التَّمام بمساةٍ ومجهود
فإنْ تسيروا إلى الغايات سيرته ... إلى الكمال فقد فُزْتم بمنشود

* * *

يا عيدُ جئتَ على وعدٍ تُعيدُ لنا ... أوْلَى حوادثك الأُولى بتأييد
بل كنتَ «عيدين» فى التقريب بينهما ... مَعْنًى لطيفٌ ينافى كل تَبْعيد
رُدِدْتَ يوماً يُسَرُّ المؤمنون به ... ولم تكن بادئاً يوماً لتعْييد

* * *

رسالةُ الله لا تُنْهَى بلا نَصَبٍ ... يُشْقِى الأمينَ وتغريبٍ وتنْكيد

---

(١) المناجيد : الشجعان السباقون إلى النجدة .

(٢) المستسر : المستتر ، أى القمر الذى لم يبد فى مطلعه إلا أقله .

رسالة الله لو حلّتْ على جبلٍ ... لاندكّ منها وأضحى بطنَ أخدود
ولو تحمّلها بحرٌ لشبّ لظًى ... وجفّ وانهال فيه كلُّ جلمود
فليس بدْعاً إذا ناء الصفيُّ بها ... وبات فى ألمٍ منها وتسهيد
ينوى الترحّل عن أهلٍ وعن وطنٍ ... وفى جوانحه أحزان مكبود
يكاد يمكثُ لولا أنْ تداركه ... أمر الإله لأمرٍ منه موعود

* * *

فإذْ غلا القوم فى إيذائه خطَلا ... وشرّدوا تابعيه كلَّ تشريد
دعا الموالين إزْماعاً لهجرته ... فلم يجبْهُ سوى الرّهط الصناديد
مضى هو البَدْه ، والصدّيقُ يصحبه ... يُغامرُ الحزنَ فى تيهاءَ صَيْخود[1]
مُولّياً وَجْهه شَطْرَ (المدينة) فى ... لَيْلٍ أغرَّ على الأدهار مشهود
حتى إذا اتخذ الغار الأمين حِمىً ... ونام بين صَفَاهُ نوم مَجْهود
حماهُ وَشْيٌ بباب الغار منسدلٌ ... من الألَى هَدّدوه شرَّ تهديد[2]
يا لَلعقيدة والصدّيقُ فى سَهَرٍ ... تؤذيه أفْعَى ويبكى غير مَنْجُود
إن العقيدة إن صحّت وزلزلها ... مُفْنى القُرى فهى حصْنٌ غير مهدود

أمّا الصّحاب الذين استأْخروا فتلَوْا ... سارين فى كل مَسْرىً غير مرصود
ما جند قَيْصر أو كسرَى إذا افتخروا ... كهؤلاء الأعزّاء المطاريد[3]
كأنهم فى الدُّجى ، والنّجم شاهِدهم ، ... فرسان رُؤْيا لشأنٍ غير معهود
كأنهم وضياء الصُّبح كاشِفُهم ... آمال خيرٍ سرت فى مهجة البيد
فى حَيْطَةِ الله ما شعّت أسنّتهم ... فوق الظِّلال على المهْرِيّة القُود

* * *

(١) التيهاء : أرض يتيه فيها السالك . وصيخود : شديدة الحر .
(٢) إشارة إلى ما نسج العنكبوت ببابه فضلل المتعقبين للرسول .
(٣) المطاريد : فرسان الطراد فى الحرب .

عانى « محمّد » ما عانى بهجرته ... لمأرَبٍ فى سبيل الله محمود
وكم غَزاةٍ وكم حَرْبٍ تَجَشَّمها ... حتى يعود بتمكين وتأييد
كذا الحياة جهادٌ ، والجهاد على ... قدْر الحياة ، ومن فادَى بها فُودِى

أدْنى الكفاحِ كِفاحُ المرء عن سَفهٍ ... للاحتفاظ بعمرٍ رهْنِ تحديد
ليغنم العيْش طَلْقاً كل مقتحم ... وليبغ فى الأرض شقّاً كلُّ رِعديد
ومن عدا الأجَلَ المحتوم مطلبُه ... عَدَا الفناء بذكرٍ غير ملحود

* * *

لقد علمتم ، وما مثلى يُنَبئكم ... لكنّ صوتى فيكم صوتُ تَرْديد
ما أثمرَت هجْرةُ الهادى لأُمّته ... من صالحاتٍ أعَدّتها لتخليد
وسوّدتها على الدنيا بأجمعها ... طِوال ما خَلُقَتْ[1] فيها بتسويد
بَدَا وللشِّرْك أشياعٌ تُوَطِّده ... فى كلِّ مسْرَح بادٍ كلَّ توْطيد
والجاهليُّون لا يرضوْن خالقَهمْ ... إلا كعبْدٍ لهم فى شَكل معبود
مؤَلِّهون عليهم مِن صناعتهم ... بعضَ المعادن أو بعض الجلاميد[2]
مستكبرون أُباةُ الضَّيم غُرُّ حِجَى ... ثقال بطشٍ لِدانٌ كالأماليد[3]
لا ينزل الرأى منهم فى تفرُّقهم ... إلا منازلَ تَشْتيتٍ وتبديد
ولا يضمُّ دُعاء من أوابدِهم ... إلا كما صِيحَ فى عُفْرٍ عباديد
ولا يطيقون حُكْماً غير ما عقدوا ... لذى لواء على الأهواء معقود

* * *

بأىِّ حلمٍ مُبيد الجهل عن ثقةٍ ... وأىِّ عزمٍ مُذلٍّ القادة الصِّيد
أعاد ذاك الفتى الأُمِّىُّ أمّته ... شملًا جميعاً من الغُرِّ الأماجيد

---

(١) خلقت : استحقت .
(٢) الجلاميد : الصخور .
(٣) لدان ، جمع لدن ، وهو اللين .

لَتِلْكَ تاليةُ الفرقان فى عجَبٍ ... بل آيةُ الحقِّ إذ يُبْغَى بتأكيد
صَعْبان راضهما : توْحيد معْشرهم ... وأخذُهم بعد إشراكٍ بتوحيد
وزاد فى الأرض تمهيداً لدعوته ... بعهده للمسيحيين والهود
وبدئه الحكْمَ بالشُّورى يتمُّ به ... ما شاءه الله عن عدْل وعن جود
هذا هو الحقُّ والإجماع أيّدَه ... فمن يُفَنِّدْه أولى بتفنيد

* * *

أىْ مسلمى « مصر » إن الجِدَّ دينكم ... وبئس ما قيل : شعبٌ غير مَجْدود
طال التّقاعس والأعوام عاجِلةٌ ... والعام ليس إذا وَلَّى بمرْدود
هُبُّوا إلى عمل يُجْدِى البلاد فما ... يفيدها قائلٌ : يا أمَّتى سودى
سَعْياً وحزماً ، فوُدُّ العدل وُدُّكم ... وإن رأى العدلَ قوْمٌ غير موْدود
تعلَّموا كلَّ علمٍ وانْبُغوا وخذوا ... بكلِّ خُلْقٍ نبيهٍ أخذَ تشديد
فكُّوا العقول من التَّصْفيد[1] تنْطلقوا ... وما تبالون أقْداماً بتصفيد

* * *

« مصر » الفؤاد فإن تُدْرِكْ سلامتَها ... فالشَّرق ليس وقد صحَّت بمفؤود[2]
الشرْق نصْفٌ من الدنيا بلا عملٍ ... سوى المتاع بما يُضْنِى وما يودى
والغرب يرْقى وما بالشرق من همٍ ... سوى التفاتٍ إلى الماضى وتمْديد
تشكو الحضارةُ من جسمٍ أشلَّ به ... شَطرٌ يُعَدُّ وشطرٌ غير معدود

* * *

أبناءَ « مصر » عليْكم واجِبٌ جَلَلٌ ... لبعث مجدٍ قديم العهد مفقود
فلْيَرْجِعِ الشرق مرفوع المقام بكم ... وَلْتُزْهَ « مصر » بكم مرفوعة الجيد
ما أجمل الدهرَ إذ يأتى وأرْبُعُنا ... حقيقة الفعل والذِّكرى بتمجيد

---

(١) التصفيد : التقييد .
(٢) المفؤود : المصاب فؤاده .

والشرق والغرب مِعْوانانِ قد خلصا ... من حاسدٍ كائد كيْداً لمحسود
صنوان برّان فى علمٍ وفى عملٍ ... حُرّان من كلّ تقييدٍ وتعْبيد
لا فِعْلَ يُخْطئُ فيه الخيرَ بَعْضُهما ... إلا تداركه الثّانى بتسديد
ولا خصومة إلاّ فى استباقهما ... لما يَعُمُّ بنفع كلّ موجود
هذى الثّمار التى يرجو الأنام لها ... من رَوْضكم كلّ نامٍ ناضر العود
لمصر والشرْقِ بل للخافقَيْن معاً ... دَعْ زعم كلّ عدوّ الحقّ مرِّيد[1]

* * *

جُوزوا على بركات الله عامَكم ... فقد تبدّل منحوسٌ بمسعود
رجاؤكم أبداً مِلْءُ النفوس ، فما ... يُنْفَى بحسنَى ولا يُوهَى بتهديد
بدا الفلاحُ ، وفى هذا الهلال لكمْ ... بُشْرى التّمام لوقْتٍ غير ممدود
غداً نرى البدر فى طِرْسِ السماء مَحَا ... بخاتَمِ النُّور زلاّتِ الدّجى السود

يحيى بعثة الأطباء إلى حرب طرابلس

وقال سنة ١٩١١ يحيى بعثة الأطباء المصريين الذين ارتحلوا إلى ليبيا لمعاونة المجاهدين العرب الذين قاوموا العدوان الإيطالى :

سيروا على بركات الله واغْتنموا ... أجر الجهاد وأجر البِرِّ بالنّاس
لِيَشْفِ مِبضعُكم والرفقُ يُعْمِلُهُ ... صدع الرّصاص وجرح الصّارمِ القاسى
لَهْفى على شُوس[2] أبطالٍ تَلوكهم ... غولُ الرّدى بين أنيابٍ وأضراس
كانوا وقد ركِبوا للحرب أبهج ما ... ترى العيونُ غياضاً فوق أفراس
واليوم قد عَثَروا تَنْدَى نضارتُهم ... نَدَى الجفاف وتخْبو شعْلةُ البَاس
كونوا لهم إن شكوا إخوان تأسيةٍ ... وإن هم استوحشوا إخوان إيناس

---

(١) مريد الخبيث .
(٢) شوس جمع أشوس وهو الشجاع الجرىء .

رُدُّوا على الوطن الباكى أعِزَّتَه ... ودافعوا الموت عنهم دَفْعَ أَكْياس[1]

فان أسقامهم فى كل جارحةٍ ... منّا وآلامهم فى كلِّ إحساس

لله مسعاتكم والحق يشكرها ... والخلق يذكرها ترديد أنفاس

مبرّأة طَهُرَتْ أرواحكم وسَمَتْ ... بها مراتب فوق الضَّيْمِ والياس

خوضوا المصاعب لا يُلِمِمْ بأنفسكم ... ما قد تُلاقون من ضُرٍّ ومن باس

هذا الهلال لكم رَأْدَ النهار هُدَى ... وفى اعتكار الدَّياجى خير نبراس

وإن فى ظلّه النَّادى برحمته ... لَبَلْسماً لجراح القلب والرَّاس

أينْ عصبةَ الخير داووا أبرياء هَوَوْا ... صرعى مطامعَ قوّادٍ وسُوّاس

لو صوّر الله فى جسم امْرِئٍ مَلَكاً ... لَصَوَّر المَلَكَ الإنسىَّ فى آسِ[2]

عتب وطنى

وقال سنة ١٩٢٠ يعتب على أحرار مصر فى موقف تردد :

إن تكونوا حُماتها وبنيها ... مالتلك الذِّئاب تَعْتَسُّ فيها ؟[3]

أفتر ضوْن أن تَهُونَ عتيداً ... بعد ذاك الإباء فى ماضيها ؟

تلك أو طانكم تُباع عليكم ... صَفْقَةً بَخْسَةً فمن مشتريها ؟

رثاؤه لمحمد فريد

ونظم قصيدة رائعة فى رثاء الزعيم الشهيد محمد فريد سنة ١٩١٩ ؛ قال :

أفريدُ لا تبعد على الأدهار ... أنت الشهيد الخالد التذكار

بالأهل بالدم بالرفاهة بالغنى ... فَدَّيت مصر وفُديت من دار

حررت نفسك دائب المسعى إلى ... تحريرها لتعزّ بعد صغار

---

(١) أكياس جمع كيس وهو الفطن الذى يحسن الفهم .

(٢) آس أى مداو للجروح .

(٣) تعتس تطرق ليلا .

مسترســـلا والدهر فى إقباله ... مسنبســـلا والدهر فى الإدبار
ثبتاً إذا ما الراسخون تقلقلوا ... متوافق الإعـــلان والإسرار
فبررت بالعهـد الذى عاهدته ... ووفيت فى الإيسار والإعسار
ما كان ذاك العمـر إلا قُربة ... موصولة الآصال بالأســـحار
ومن المنى ماليس يوفى حقـه ... حتى يكون الجـود بالأعمار

فريد ومصطفى :

إنى لأذكر مصطفى ورفيقَـــه ... فى مستهلهمـا وفى الإبدار
متوخياً إعتـاق مصر كلاهما ... وكلاهما لأخيـــه خير مبار
وكلاهما يسعى الغـــداة مذللا ... سبل النـــجاح لمقتفى الآثار
وكأن مصر حيال كل مخاطر ... إذ ذاك فى شغل عن الأخطار
فى قلبها حب الحيـــاة طليقة ... لكنها تخشى أذى الإظهار
وضمـــيرها آناً فآناً يُجتلى ... فيُرى كما اقتدح الزناد الوارى
عرفا حقيـــــقتها وبثا بثها ... ثقـــة وما كانا من الأيسار
لم يلبثا متآزرين بنيـــــة ... مصدوقة فى خفـــية وجهار
حـــتى إذا ما أيقظا إيمانها ... فذكا ذكاء النور قبل النـــار
أبدت أساها يوم فارق مصطفى ... هذا الجوار ورام خير جوار

فريد رئيساً للحزب الوطنى :

ذهب الرئيس فنيط عبء مقامه ... بالأنزه الأوفى من الأنصار
أفريد هـذا الشأو قد أدركتَه ... وسبقت من جاراك فى المضمار
فتقاض أضعافَ الذى قدمتـه ... واستق صوب العارض المدرار
إن تلتمس جاها أصِبْ ما تشتهى ... أو رفعةً فاظـــفر بالاستيزار
والشرق يقبل قد عملت من الأولى ... يتحملون غرائب الأعـــذار

الشعب شبه البحر لا تأمن له ... ما أمن مقتعد متون بحار
فغداً ويا حذرا لمثلك من غد ... قد تستفيق ولات حين حذار
يسلو الأولى عبدوك أمس وربما ... كوفئت من عرف بالاستنكار
فتبيت صفر يد وكنت مليئها ... وتذوق كل مرارة الإقتار
لكن أبيْتَ العرض إلا سالما ... وإن ابتليت بشقوة وضرار
لم تعتقد إلا الولاء وقد أبى ... لك أن تلبى داعى الإخفار
وسموت عن أن يستميلك خادع ... بالمنصب المزجَى أو الدينار
فظللت مبدؤك القويم كعهده ... عند الوفاء وفوق الاستئثار

تزداد صدق عزيمة بمراسه ... ورسوخ إيمان بالاستمرار
ما إن تبالى ساهراً مترصداً ... يرنو إليك بمقلة الغدار
يجنى عليك لغير ذنب باغيا ... والبغى جنّاء على الأطهار
من كان جار السوء يوما جاره ... عدت فضائله من الأوزار

فريد فى السجن :

قل للرئيس إذا مررت بسجنه ... إن السجون معاهد الأحرار
وافيته طوعا ورأيك ثابت ... أن اعتقالك مطلق الأفكار

إن يحجبوك فإن فكرك رافع ... نوراً تضاء به سبيل السارى
كم تحجب الظلمات طوداً شامخاً ... فيلوح فوق ذراه ضوء منار
إنا لنسمع من سكوتك حكمة ... ونرى هدى فى وجهك المتوارى
وإذا النفوس تجردت لمرامها ... غَنِيتْ عن الأسماع والأبصار
حاشاك أن تأسى وهل تأسى على ... علم بأن التّم بعد سرار
الأنبياء انتابهم زمن به ... لزموا التفرد عن رضاً وخيار
لجأوا إلى الخلوات واحتبسوا بها ... شظفى المعايش لابسى . الأطمار

مستجمعين مروضين قلوبهم لقيام دعوتهم على الأخطار
ومن الغيابات التى أمسوا بها بعثوا الهدى كالشمس فى الإزهار
سل موحشا فى طور سينا سامعاً كلم المهيمن فى اصطفاق النار
سل طيف جلجلة يكاد من الطوى يسمـــو به راقٍ من الأنوار
ســـل خالياً بحراً يلبى ربه فى الغار عن صرعاته فى الغار
بالعزلة اكتمنوا ورب مروض للنفس حررها بالاستئسار
لا شىء أبلغ بالدعاة إلى المنى من أن تمحصهم يد المقـدار

فريد فى طريق المنفى :

لم يكفـه ما كان حتى جاءه ما فوق غَلِّ الجيد والإحصار
النفى بعد السجن : تلك عقوبة أعلى وأغلى صفقة للشـــارى
يسمو بها السجن القريب جداره شرفا إلى سجن بغير جدار
لا يترك الجارى عليه حكمه إلا ليدركه القضاء الجارى
أى السفائن تستقل كأنها إحدى المدائن سيرت ببخار
ينأى بها عن أهـــله ورفاقه دامى الفؤاد وشـيك الاستعبار
ينبو ذرا البـــلد الأمين بمثله والزاحفات أمينـــةُ الأحجار
متلفتاً حين الوداع وفى الحشى ما فيه من غصص ومن أكدار
متشبعاً متروباً ممـــا يرى لشفاء مسغبة به وأوار
يرنو إلى صُفر الشواطىء مُنطقت أعطافها بالأزرق الزخار
ويذوب قبل البين من شوق إلى أنس الحمى وجمـاله السحار
يستاف ما تأتى الصبا بفضوله من طيب تلك الجنة المعطار
وبسمعه لحن المواطن جامعا لغة الأنيس إلى لغى الأطيار
لهفى عليه مشرداً قبل الردى سيهيم فى الدنيا بغير قرار

من أجل مصر يؤم كل ميمم ... فى قومه ويزور كل مزار
لايوم يسكن فيه من وثب ، ومَن ... بسكينة للكوكب السيار ؟
فى غربة موصولة آلامها ... أنضته فى الرحلات والأسفار
تنتابه الصدمات لا يشكو لها ... إلا شكاة المحرب الكرار
ثقة بأن الفوز ليس لجازع ... فى العالمين ، الفوز للصبار
وتعضه الفاقات لا يلوى بها ... عزا ويسترها بستر وقار
حرصا على المتطولين بفضلهم ... أن يجنحوا وَجَلًا إلى الإقصار

فريد فى مرضه :

ما كان هذا الحد حد عذابه ... تردى الأسود ضرورة الأخدار
صال الشقاء على فريد صولة ... بين الجوانح أنذرت ببوار
قصرت لياليه على مجهوده ... واليوم عدن عليه غير قصار
ما بال ذاك الوجه بعد تورّد ... خلع النضارة واكتسى ببهار ؟
ما بال ذاك الوجه بات من الضنى ... كالرسم فى جرف به منهار ؟
ما بال ذاك العزم بعد مضائه ... عثرت به العلات كل عثار ؟
ما بال ذاك القلب بعد خفوقه ... تنتابه هدآت الاستقرار ؟
أمسى يعالج سكرة فى نزعه ... من لم يذق فى العمر طعم عقار
ولو استطاع لما أضاع دقيقة ... يمضى الزمان بها مضى خسار
وفّى بما أعطاه حق بلاده ... والموهبات ترد ردّ عوارى
أمكانه هذا أتلك حليه ... والبيت خال والمقلد عارى ؟
أكذاك يختم فى الشقاء حياته ... من كان جم الجاه والإيسار
ماذا تفى من حقه بعد الذى ... عاناه كل قلائد الأشعار
إن الذى يبلوه شارى قومه ... غير الذى تتلوه فى الأسطار

عظة وفاته :

مات الرئيس فراع مصر وأهلها ... ذاك النعيُّ وذاع فى الأمصار
مات العصامى العظامى الذى ... ما كان بالعاتى ولا الجبار

تحية الختام :

أفريد هذا ما يهيئه الفدى ... لعشيرة فديتها وديار
ثم إن مصرا عنك راضية وفز ... من شكرها بمثوبة الأخيار
أوشكت أجزع فانتهيت بأننى ... آنست فيك مشيئة للبارى

تحية الشهداء

قال فى حفلة أقيمت سنة ١٩٢٤ لتحية أرواح شهداء الحركة الوطنية :

إلى أرواح الشهداء

تحيَّةَ أيها القَتْلَى وتسليما ... بلغتم الشَّأْوَ تخليداً وتعظيما
لا يعبدُ المرء ربًّا لا ولا وطناً ... بمثْل إغْلائه القُربان تقديما

قلتم وصدّق ما قلتم تحمُّلكم ... أذى يَرُدُّ فِرِنْدَ الصبر مثلوماً[1]
ما الموت إن كان إنقاذ البلاد به ... من غاصبٍ وانتصافُ الشَّعب مظلوما
يُحطِّم العظمُ منكم دون بُغْيتكم ... فتصبرون ويأبى العزم تحطيما
برًّا « بمصر » وخوفاً أن يُسَلِّمَها ... إلى العِدَى واهِنُو الإيمان تسليما
ليس الشهادة إلا من يموت على ... حقٍّ ومن لا يبالى فيه ما سيما
إمْضُوا رفاقاً كراماً، حسبكم عِوَضاً ... مجدٌ عزيز على الخُطَّاب إنْ ريما
للمشترى بصباهُ عِزَّ أمتـــه ... ذكرٌ يُديمُ اسمه بالتِّبر مرقوما
وللتى استبدلت بالقبر مرتعها ... قِسْطٌ من الفخر فوق العمر تقويما

(١) الفرند : حد السيف .

لا تحسبوا مصر تنساكم فكُلُّكمو ... يَبقَى على الدهر مرْؤُوماً ومرحوما
وفى المرابع من أرواحكمْ نَسَمٌ ... تظلُّ تأتى بها الأرواحُ تنسيما

تحية للذين أطلقوا من الاعتقال

وقال فى هذه القصيدة مخاطبا من أفرج عنهم من الاعتقال :

يا خارجين كراماً من محابسهم ... ومُبْهجى كلِّ قلبٍ كان مغموما
كم كُبِّلَ الحقُّ بالأصفاد من قِدَمٍ ... ثم انطَوَيْن وباء البُطْلُ مهزوما
يا سوء دهرٍ نَهَضَتْه قبل نهضتها ... « مِصْرُ » يخيِّم فيها الذُّلُّ تخييما
تَهِى قُوَى اللَّيث من عَيْثِ الذِّئاب بها ... ويلْتوى الأمْرُ تحليلاً وتحريما
فاليومَ عاد إلى رأيٍ يُشرِّفهـا ... من ظنَّ إقليمها للخفض إقليما
دَلَّتْ على قوةٍ فيهـا صلابتُكم ... تذود عنها الأَشِـدَّاء المقاحيما
هل يُجْزِىء الشكر من ضَيمٍ تحمَّلَه ... بالأمس من كان منكمو فى رأيه ضيما
قد أثّموكم وكم من مُثْلَةٍ نزلَتْ ... بالأبرياء وبالأبرار تأثيما
و بعض ما عاقبُوكم فيه جَعْلُكمو ... صِدْقَ الهوى لِلحِمَى دِيناً وتَعْليما
لا حاكماً دون ما أوحتْ ضمائرُكم ... تُراقبون ولا تَرْعَوْن محكوما

* * *

لقد ظفرتم بما أدْنى القَصِىَّ لكم ... من المرام فليس الفَوْزُ مزعوما
هل استقام زمانٌ لا يُقَوِّمه ... بنُوه بالصبر والإقدام تقويما ؟
أو نال حُرِّيةً قومٌ بها جَدُرُوا ... وهم يبالون تَقْتيلاً وتكليما ؟[1]

* * *

يا سادةً كالنجوم الغُرِّ منزلةً ... وسيِّداتٍ كعِقْد الدُّرِّ منظوما

---

(١) التكليم : التجريح .

حمداً لإقبالكم هـذا وحفلتكم ... تُهنِّئون الصَّناديد المقاديما

من الأُولى ما ونَوْا عن واجبٍ فبَنَوْا ... لعزِّ « مِصْر » طِرافاً[1] كان مهدوما

أولئكم إن بَدَا من فضلهم أثرٌ ... فكم لهم من جميلٍ ظلَّ مكتوما

فلْتَحْيَ « مِصْرُ » وأبرارٌ نُجِلُّهمو ... ونحتفى بهم حُبـا وتكريما

رثاؤه لأمين الرافعى

ومن قصيدة له فى رثاء المرحوم أمين الرافعى الذى انتقل إلى جوار ربه فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٧ . وقد ألقيت هذه القصيدة فى حفلة تأبينه :

باعوا المخلَّدَ بالحطام الفانى ... وَشَرَيْتَ بالأغلَى من الأثمان

تلك الحيـاة أمانةٌ أدّيتها ... بتمامهـا لله والأوطان

بالصبر والإيمان أُخْلِصَ بَدْؤُها ... وختامها بالصبر والإيمـان

أعْرضت عن لذاتها منذ الصِّبى ... والرَّوْضُ تُغرِى والقطوف دوانى

متوخِّياً من دونها أُمنيَّةً ... لم يوهِ وَحدتهـا شتيتُ أمانى

تَهْوَى البلادَ ولا هَوَى لك غيرها ... أو تُفتدى من ذلَّةٍ وهـوان

ظلت تنازعك الصُّرُوف بما بها ... من مُنَّةٍ ، وظلت ثَبْتَ جَنان

مُستنزفاً دمك الزَّكىَّ ولم يُرَقْ ... بِشَبَاةِ قِرْضـابٍ ولا بسنان

فى صولة للدهر تعقُب صـولةً ... مُنْتابةً فى الآن بعـد الآن

حتى قَضَيْتَ شهيدَ رأيك واقضى ... ما كنت تلقَى دونه وتعـانى

ويحَ الأبىِّ تسوءه أيامه ... وتَسُرُّ كلَّ مماذقٍ[2] مذعان

ممن يقـدَّم فى الرجال وما به ... إلا الطِّلاء بكاذب الألوان

---

(١) الطراف : البيت .

(٢) مماذق : أى غير مخلص .

ماذا دهى « القسطاط » حين تجاوبت أصـــداؤها لنواك بالإرنان ؟[1]
وجلا عن القدَر المخبَّأ ليلُهـــا وبدا الصباحُ مقرَّحَ الأجفان

* * *

خطبٌ أرانا فى مجالات الفِدَى والصدقِ كيف مصارعُ الشجعان
فالشرق فى شَرَق من الدمع الذى أجرى العيون وفاض بالغـــدران

* * *

أى « مصطفى » يبكيك قومك كلما عادتْهمو ذكرى فتى الفتْيـــان
يوم الوفاء دعا فكنتَ لواءه وطليعةً لطليعة الفرســـان
هذا شهيدٌ من ولاتك خامسٌ يَهْوَى بحيث هويت فى الميدان
لـكأنّهم ، والموتُ أسوأُ مغنمٍ ، يترا كضُون إليه خيـــلَ رهان
بذَلوا النفوسَ كما بذَلْت وأرْخَصوا ما عزّ من جاهٍ ومن قُنيان
فإذا ذُكرتَ وأنت عنوان الفدى فاسم الرفاق تتمـــــة العنوان

وظل خليل مطران يغرد بشعره ألحان الحرية ، ولا ينقطع عن التعزية حتى فاضت روحه الكريمة مساء ٣٠ يونيه سنة ١٩٤٩ .

---

(١) الإرنان : رفع الصوت .